(وادي الذئاب).. المقاومة على طريقة الدراويش!

في الرابع من تموز/يوليو عام ٢٠٠٣ تناقلت وسائل الإعلام نبأ مداهمة الجنود الأمريكيين لكتيبة تركية في السليمانية ذات الأغلبية الكردية شمال العراق، حيث قام الأمريكيون باعتقال أحد عشر ضابطاً تركياً للاشتباه بمحاولتهم اغتيال محافظ كركوك، وأخرجوهم من مكاتبهم أمام عدسات المصورين إلى سيارات الجيش مقيدي الأيدي ورؤوسهم محشوة في أكياس من القماش. ومع أنه أطلق سراح هؤلاء الضباط بعد يومين من الحادثة مقروناً باعتذار رسمي مفاده أن الضباط كانوا يرتدون ملابس مدنية مما أدى إلى صعوبة التمييز بينهم وبين العراقيين -وكأن كونهم عراقيين يكفي لوصفهم بالإرهاب!- إلا أن الأتراك لم يصدقوا هذا الادعاء، بل تصاعدت موجة عارمة من الغضب الرسمي والشعبي في تركيا أثّرت في العلاقات بين البلدين، ورأى البعض في هذا التصرف انتقاماً من الأتراك الذين رفضوا السماح للقوات الأمريكية باستخدام القواعد العسكرية في أراضيها في أثناء غزو العراق، علماً بأن الرفض التركي قام على استفتاء شعبي ولم يكن مجرد قرار سياسي.

وللرد على هذه الإهانة؛ ولأن ميزان القوى لا يسمح للأتراك بالتحرك عسكرياً جاء الرد سينمائياً هذه المرة، وكانت النتيجة إنتاج أضخم فيلم تركي على الإطلاق، بميزانية تقدر بنحو عشرة ملايين دولار وبإنتاج تركي- كندي مشترك.

استغل الكاتبان (**بهادير أوزدينير**) و(**راجي شاشماز**) شهرة السلسلة

التلفزيونية التركية (وادي الذئاب)[١] والتي تدور أحداثها حول مكافحة أحد ضباط المخابرات (بولات ألميدار) لعصابات المافيا التركية، فقاما بكتابة نص هذا الفيلم كاستمرارية للمسلسل الناجح وتحت الاسم نفسه، مع تحويل (وادي الذئاب) من الشوارع الخلفية في إسطنبول إلى المناطق المحتلة في العراق، كما أسند المخرج التركي (**سيردار أكار**) دور البطولة إلى بطل المسلسل نفسه (**نجاتي شاشماز**)، مع استقدام عدد من النجوم العرب والأمريكيين لمنح الفيلم صبغته العالمية.

نجح الفيلم بالفعل في تجاوز السوق المحلية، فبعد أن حظي بمتابعة غير مسبوقة في دور العرض التركية، وُزع في العديد من الدول الأوربية مثل هولندا والنمسا وألمانيا، ولقي إقبالاً جماهيرياً كبيراً، مع أنه قد منع عرضه في عدد من دور السينما الألمانية نتيجة لضغوط اللوبي الصهيوني، بل نجح المنتجون أيضاً بتسويقه في الولايات المتحدة نفسها، مما يسمح لنا بتناوله بصفته فيلماً عالمياً صُنع بأيد مسلمة.

قصة الفيلم

تبدأ أحداث الفيلم التركي (**وادي الذئاب.. العراق**) بمشهد لأحد الضباط الذين تعرضوا لتجربة الاعتقال تلك وقد قرر الانتحار انتصاراً لكرامة الوطن، فيكتب رسالة إلى ضابط المخابرات (بولات) الذي سينتقم له وللأمة التركية فيما بعد. ثم يعيد الفيلم تمثيل الأحداث الحقيقية التي جرت في السليمانية، مع إسنادها إلى ضابط أمريكي وهميّ يدعى (سام ويليام مارشال) ويؤدي دوره النجم الأمريكي (بيلي زين)، والذي أدلى

(١) بعد نجاح الفيلم السينمائي الذي يحمل هذا الاسم، قرر منتجو المسلسل السير على خطا الفيلم بتحويل قضيته في الأجزاء التالية من مناهضة عصابات المافيا إلى صراع جهازي المخابرات التركي والإسرائيلي، وقد عمّق عرض هذا المسلسل من الأزمة السياسية العالقة بين الطرفين منذ الحرب على غزة.

بتصريح مفاجئ لوسائل الإعلام يقول فيه: إنه كان مبهوراً بالشخصية التي أداها؛ لأنها تطرح وجهة نظر مغايرة تماماً لما اعتادت هوليود على تقديمه عند تناولها لمثل هذه القضايا المثيرة للجدل.

يدخل (بولات) أرض العراق مع اثنين من مساعديه لتنفيذ المهمة، وتبدأ الأعمال البطولية منذ اللحظة الأولى وكأننا أمام نسخة تركية للأسطورة الأمريكية (رامبو)، البطل الخارق الذي يقتل جيشاً كاملاً دون أن يُخدش.

وللمزيد من الانتقام يحشد الفيلم أكبر قدر ممكن من أشكال العجرفة والظلم الذي يمارسه الأمريكيون ضد الشعب العراقي بكل أعراقه، فيصور لنا انتهازهم فرصة سماع إطلاق النار في أحد الأعراس الشعبية -كما هي العادة في المناسبات- لتسويغ اقتحام القرية واعتقال شبابها، فيتحول الاحتفال إلى مجزرة يُقتل فيها العريس، وتبدأ العروس الأرملة خطتها للانتقام، إلى أن تلتقي بالضابط (بولات) ويتعاونان على تنفيذ هدفهما المشترك.

كما يعرض الفيلم أحداثاً مأساوية لاعتقال عشرات العراقيين ونقلهم إلى أحد المستشفيات ليقوم طبيب يهودي؛ الممثل الأمريكي جاري بوزي، بسرقة أعضائهم وبيعها إلى الأثرياء في الخارج. وفي مشهد آخر يفتح أحد الجنود الأمريكيين النار على العراقيين في أثناء **شحنهم** إلى المستشفى لأنهم أقل شأناً عنده من الحيوانات، فضلاً عن مشاهد أخرى يعاد فيها تجسيد ما جرى في سجن أبو غريب من تعذيب، والتي قدمها المخرج بجرأة غير معهودة مع تعرية الممثلين بالكامل.

في نهاية الفيلم، يبلغ خيال الكاتب درجة إقحام الجنود الأمريكيين في معركة وحشية مع المدنيين عند مداهمتهم لإحدى القرى، فتبدأ المعركة

بقصف المئذنة التي يعتليها مؤذن عجوز ينادي لصلاة العشاء، ثم يعيث الجنود فساداً وتدميراً في بيوت القرية الطينية، بينما يستقتل الأتراك في هذه المعركة غير المتكافئة، وتُقتل ليلى قبل نجاحها في طعن (سام) ليقوم (بولات) بالمهمة مستخدماً خنجرها، وهو الخنجر الذي أهداه العريس القتيل إلى ليلى مؤكداً على أن أجداده اعتادوا على إهدائه لزوجاتهم جيلاً بعد جيل منذ عصر القائد الكردي صلاح الدين الأيوبي، ليستقر أخيراً في قلب القائد الأمريكي، وهي رسالة رمزية تحمل الكثير من الدلالات.

غموض وتناقض

كما هو حال السياسة التركية مع صعود حزب العدالة والتنمية، قد يكون من الصعب تحديد المرجعية الإيديولوجية لصنّاع الفيلم دون ترك هامش للخطأ لما تتسم به من الغموض الذي قد يكون مقصوداً. ففي بداية الفيلم، يقبّل الضابط العلم التركي ويكتب في رسالة الانتحار: «في كل يوم قضيناه في العراق سألنا أنفسنا ما الذي كنا نفعله هناك؟ ثم لاحظنا أن كل من امتلك سلطة في تلك المنطقة فإنه قد قمع شعبها؛ أي الأكراد، إلا أجدادنا»، ثم يردد: (عاش الوطن) ويضغط على الزناد مفجراً رأسه. وتتوالى مشاهد الاعتزاز الشديد بالقومية التركية طوال الفيلم، فيظهر البطل التركي في صورة المخلّص الأوحد للأكراد، في حين ينقلب زعيمهم إلى عميل للاحتلال، ويغدو الموت في سبيل الوطن أمراً مألوفاً لدى المُشاهد، وعلى طريقة جيمس بوند في فداء التاج والملكة البريطانية.

مع ذلك، تطل المشاعر الإسلامية برأسها أيضاً طوال الفيلم، بل يُعاد سبب الاحتلال في بعض المشاهد إلى البعد عن الدين، إذ نسمع شيخ القرية الصوفي عبد الرحمن الكركوكي -الممثل السوري **غسان مسعود**- وهو يدعو ربه قائلاً: «لأننا تصرفنا بقسوة فيما بيننا فإن عدونا يضطهدنا الآن... أصبحنا جاهلين، خاطئين والآن مهزومين، لم توقظنا حكمة

القرآن والسنة، فأيقظتَنا يا رب عن طريق أعدائنا، امنحنا القدرة والقوة لنصد هذه الاعتداءات، يا رب.. تقديراً لنبيك المبارك الذي أوصل إلينا الإسلام دين السلام، لا تحرمنا من الشريعة ولا من الأخلاق التي تركها لنا».

غير أن هذا التحليل الجريء لواقع الهزيمة، الذي يعزو المشكلة إلى جهل المسلمين بدينهم وقسوتهم بعضهم على بعض، لا يتطلع إلى ما هو أبعد، فمواقف الشيخ الصوفي لا تتعدى غالباً مهمة رسم صورة الإسلام المتسامح النابذ للعنف. ففي أحد المشاهد، يقتحم الشيخ عبد الرحمن بيتاً لبعض الشباب المقاومين وهم يستعدون لقطع رأس صحفي غربي، فيوبخ قائدهم قائلاً: نبينا لم يفعل هذا، ثم يسأله وهو ينزع السيف من يده: أأنت الله لتعرف إن كان بريئاً أم لا؟

وفي مشهد آخر نجده يحاور الفتاة التي ترملت في حفل زفافها (ليلى) عندما تستأذنه للقيام بعملية فدائية بين الجنود الأمريكيين، فيمنعها لأن من يقوم بهذه العملية يخالف إرادة الله من ناحيتين، فهو يقوم بها من باب اليأس ومخاطراً بقتل العديد من الأبرياء الموجودين في المكان من دون ذنب، كما يقدم ذريعة للغرب لنعت المسلمين بالإرهاب، ثم يؤكد مرة أخرى أن عجزنا نتيجة لانحرافنا عن القرآن والسنة ولإخفاقنا في الاتحاد. ولأن الفدائي شخص عاجز، فأعداؤنا يرغبون في زيادة هذه العمليات بل ربما هم من ينظمها، ثم يرى أن الحل يكمن في الدعاء إلى الله كي نصبح أحراراً.

ومع وجاهة القول بخطأ التفجير العشوائي فإن الزعم باستفادة الأعداء من العمليات الفدائية لا يتناسب مع أحداث الفيلم نفسه، حيث لا ينتظر المحتل مثل هذه الذرائع لينفذ مخططاته، وهذا ما رأيناه عندما يرابط الجنود الأمريكيون على مقربة من القرية بانتظار إطلاق الرصاص المعتاد

في الأعراس ليبدؤوا الاعتقال، كما يؤكد الواقع أن هذه العمليات - وبغض النظر عن شرعيتها- هي السلاح الأقوى في مقاومة المحتل، ولم يثبت قيام الأمريكيين أو الإسرائيليين بالوقوف وراء أي منها، بل يعرض الفيلم تذمر الضابط الأمريكي الذي ينجو من إحدى هذه العمليات قائلاً: كيف يجرؤون؟.. أما اكتفاء الشيخ بالدعاء إلى الله فيبدو موقفاً انهزامياً يتناسب مع الصورة النمطية للإسلام المعتدل في ثوب الشيخ الصوفي المهادن والمستسلم لإرادة الله، وتتجسد هذه الصورة بوضوح أكبر في حضرة الذكر الصوفية التي يقودها الشيخ بين أتباعه الدراويش!

وللمزيد من الغموض والتناقض، يبدي الشيخ الصوفي رأياً مغايراً دون أن ندرك سبب التحول، فنراه في مشهد آخر يستأمن أحد أتباعه على المسجد وملجأ الأيتام ثم يوصيه قائلاً: «الصبر لا يعني أن تخضع.. الصبر هو أن تقاوم»، والعجيب هو أن الفيلم لا يقدم لنا النموذج المقبول لهذه المقاومة سوى على يد ضباط المخابرات، في حين يظل الشيخ الصوفي بعيداً عن ساحة العنف حتى النهاية.

من يدفع الضريبة؟

يحق للمسلمين أن يستبشروا خيراً عندما تُصنع أفلام عالية الجودة بجهود وأموال وإبداعات مسلمة، لتدفع عنهم تهم الإرهاب وتعيد إلى الساحة شيئاً من توازنها في ظل التفرد الهوليودي الطويل، وخصوصاً عندما يتحول اتجاه حركة النجوم من هوليود إلى الشرق ويشارك ممثلون أمريكيون في تقديم الوجه الآخر للحقيقة.

ففي موقف جريء آخر لهذا الفيلم، وبعد الاعتراف بالدوافع الاقتصادية لاحتلال العراق؛ يُسلَّط الضوء وبصراحة بالغة على الدوافع الدينية **الصليبية** لإدارة بوش، فيقف القائد الأمريكي "سام" أمام تمثال

المسيح -عليه الصلاة والسلام- ويخاطبه بالقول: «امنحني القدرة من أجل الصراع في بابل كما وعدت في الكتاب المقدس.. الجيل القادم سيكون شاكراً لأبطالهم الذين بنوا مملكة الرب، إنه لشرف لي أن يذكروني في صلواتهم.. عندما خرج القديس بطرس سألته: إلى أين أنت ذاهب؟.. هاهي بابل، موطني، ولن تسألني إلى أين أنا ذاهب؟.. أعدك بأني سأموت هنا، وسيسقي دمي هذه الأرض، سيتدفق دمي على أرض الميعاد حتى تعود، وحتى تبقى أرض الميعاد لنا، فعندما تعود لنا أرض الميعاد سيعود السلام، والذي يُحلّ السلام فهو ابن الله»، كما لم يُغفل الفيلم أيضاً الوجود (الإسرائيلي) في العراق فيوجه المخرج عدسته إلى أحد الحاخامات اليهود في فندق يسيطر عليه الأمريكيون.

مع هذا كله، تظل المعالجة منقوصة ومحكومة بمرجعيات صناع الأفلام والأجواء السياسية في الدول التي ينتمون إليها، مما قد يفسر مظاهر التناقض التي مرت بنا في هذا الفيلم، فإخراج الإسلام من دائرة التسامح الصوفي إلى ساحة المقاومة قد يجد الكثير من الصعوبات في ظل المشهد السياسي التركي القائم عشية إنتاج هذا الفيلم، وفي ضوء هذا الواقع يمكننا فهم انسحاب الإسلام من الحياة اليومية لأبطال الفيلم باستثناء الشيخ عبد الرحمن، وظهور ليلى بكامل زينتها مع أنها نشأت في كنف الشيخ الوصي على أيتام القرية، كما نتفهم عجز أحد مساعدي الضابط التركي عن فهم نداء الأذان وكأنه يسمعه للمرة الأولى.

هذه الصورة الهزيلة للإسلام قد لا تعني بالضرورة توظيفه براجماتياً في سبيل الانتصار للقومية التركية، فالدهاء السياسي للحزب الحاكم في تركيا -في الفترة التي أنتج فيها الفيلم- لا بد أن يترك بصمته التي تستلزم من المراقبين التمهل وقراءة ما بين السطور، آخذين بعين الاعتبار تلك التناقضات بين المواقف، التي تدعونا للتفاؤل مع كل فيلم عالمي يُنتج

بجهود عربية أو مسلمة، ويسعى إلى كسر قيود الاحتكار الهوليودي للحقيقة، ولا بأس حينئذ في دفع الضريبة ببعض التنازلات وتعانق الضابط الأتاتوركي مع الشيخ العثماني تحقيقاً لغاية أكبر.